الإنسان هو الإنسان!!

http://www.arabpsynet.com/Samarrai/DocSamarraiWaMaSawahaa38-02814.pdf

د. صادق السامرائي
أمريكا - العراق
sadiqalsamarrai@gmail.com

على مائدة الغداء كنا ستة أشخاص بثقافات متنوعة بكل ما تعنيه كلمة التنوع , ودار الحديث عن الإنسان وماهيته , ومعناه وكيف نعرّفه , أخذنا إليه أحد الأخوة من (بنما) لديه إهتمامات بالكون والإنسان , وبدأنا منذ أول الخليقة وانتهينا إلى عصرنا الحالي , ووجدتنا بعد نقاش محتدم قد وصلنا إلى ما لا نعرف ولا ندرك , فقلت:

"وفسّرنا الماءَ بعد الجهد بالماء"!!
وترجمتها إلى اللغة التي كنا نتحاور بها.

وبعدها فتحت بريدي الإليكتروني فوجدت فيه رسالتين , الأولى من أحد الزملاء المتقاعدين والمنهمك في الفكر والبحث الثقافي العميق , يحدثني فيها عن أصل الإنسان , ويقول بأنه قد عثر على كتاب عظيم الأفكار سيلخصه في حلقات ويحثني على متابعتها.

وفي نفس البريد كانت رسالة الشبكة العربية للعلوم النفسية , وفيها موضوع عن الإنسان في نشرة أستاذنا الجليل يحيى الرخاوي.

فأصبحت مدعوا للإدلاء بدلوي , ورؤيتي التي أحسبني لا أرى بها أبعد من الذي يُرى , أو تم رؤيته منذ أول خطوات الإنسان في دهماء الأرض الدوارة المتقلبة الأنواء , والتي تزأر فيها السابغات ويحتدم بينها الصراع.

كنت ذات يوم أتجول في أزقة الأندلس وحاراتها , فوجدتني منجذبا إلى فناء بيت عربي الطراز قديم الطلعة وقد كُتب على حائطه بالعربية :

"إذا كان أصلي من ترابٍ , فكلّها بلادي ,
وكلّ العالمين أقاربي" (أمية بن أبي الصلت)

كنت ذات يوم أتجول في أزقة الأندلس وحاراتها , فوجدتني منجذبا إلى فناء بيت عربي الطراز قديم الطلعة وقد كُتب على حائطه بالعربية :

"إذا كان أصلي من ترابٍ , فكلّها بلادي ,
وكلّ العالمين أقاربي" (أمية بن أبي الصلت)

أذهلني بيت الشعر , الذي قرأته لأول مرة , وتسمرت في باحة الدار غارقا في معناه , وكيف صدعني جوهر ما فيه من المعاني والدلالات , فاقترب مني أحدهم مستفهما , فتحاورنا بمعنى بيت الشعر , وعرفت بأن الدار تراثية ومن آثار العرب في الأندلس.

في هذا البيت الشعري ذوبان صوفي في كنه الوجود , وجوهر الكينونة وإندماج في هَوْل "كن"!!

وفيه طاقة تنزع منك الفردية والشعور بالذات الدونية , وتطلقك حرا في آفاق كونٍ شاسع الإتساع مديد , فتشعر بالإنتماءات العلوية وبفضاءات القدسية , فتتحرر من بشريتك الترابية , وتتمرد على ذاتك الطينية , فتسمو إلى حيث يحلق بطاقات نجواك براق السرمد , بأجنحة الأبد المشعشعة بأنوار عرش المجد الصدّاح بعلم اليقين.

في تلك اللحظة الوجدانية التي أيقظتني من فراش التراب ودثاره وخداعه , وألقتني في عالم تتضابح فيه الأشياء , كأنها في سقر المنفى وجحيم المنتهى , ساعية للتخلص من قيود الفناء , تساءلت عن معنى الإنسان وفحواه , ودلالات مروقه في نهر الوجود الدفاق , وأصل وميضه الخاطف الفعال.

فعدت إلى القرآن لأرى الإنسان , فلا يمكن للفهم أن يكون بلا رؤية دينية أو روحية وربما أشمل!!

ورحت أتأمل بعض الآيات التي وردت في خلق الإنسان ومنها:

"إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون"3:59

"يريد الله أن يخفف عنكم وخُلق الإنسان ضعيفا" 4:28

"هو الذي خلقكم من طينٍ ثم قضى أجلا وأجلٌ مسمى عنده ثم أنتم تمترون" 6:2

"قال ما منعك ألاّ تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين" 7:12

"هو الذي خلقكم من نفس واحدة..."7:189

"ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأٍ مسنون" 15:26

"وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصالٍ من حمأٍ مسنون" 15:28

"خُلق الإنسان من نطفةٍ فإذا هو خصيم مُبين" 16:4

"أوَ لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يكُ شيئا" 19:67

"ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين"23:12

"هو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا" 25:54

"ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون" 30:20

"الذي أحسَن كل شيئٍ خلقه , وبدأ خلقَ الإنسان من طين" 32:7

"والله خلقكم وما تعملون" 37:96

"الله خالق كل شيئ وهو على كل شيئ وكيل"39:62

"خلق الإنسان من صلصال كالفخار" 55:14

"وقد خلقكم أطوارا" 71:14

"فلينظر الإنسان مِمَّ خُلق"86:5

"لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم" 95:4

"إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم" الحجرات 13

في هذه الآيات وغيرها الكثير , تتجلى معاني خلق الإنسان وأصله , ومختصر رحلته , معاني تفاعلاته الأرضية , وتطلعاته السماوية , وحيرته الأبدية.

وكلما أمعنت التأمل فيها وتساءلت عما في الإنسان , وأجدني أجيب : "أن ما في الطين فيه"!!

في هذا البيت الشعري ذوبان صوفي في كنه الوجود , وجوهر الكينونة وإندماج في هَوْل "كن"!!

تلك اللحظة الوجدانية التي أيقظتني من فراش التراب ودثاره وخداعه , وألقتني في عالم تتضابح فيه الأشياء , كأنها في سقر المنفى وجحيم المنتهى , ساعية للتخلص من قيود الفناء ,

تساءلت عن معنى الإنسان وفحواه , ودلالات مروقه في نهر الوجود الدفاق , وأصل وميضه الخاطف الفعال.

فعدت إلى القرآن لأرى الإنسان , فلا يمكن للفهم أن يكون بلا رؤية دينية أو روحية وربما أشمل!!
ورحت أتأمل بعض الآيات التي وردت في خلق الإنسان

وفي جوهر مسيرة التحدي للكشف عن ماهية وأصل الإنسان , تتحير العقول وتتبلد الأفهام , فهل للذات أن تدرك جوهرها , وهل للماء أن يعي ذاته المائية , وهل يدرك أنه جزيئتي هايدروجين وجزيئة أوكسجين؟!!

وفي جوهر مسيرة التحدي للكشف عن ماهية وأصل الإنسان , تتحير العقول وتتبلد الأفهام , فهل للذات أن تدرك جوهرها , وهل للماء أن يعي ذاته المائية , وهل يدرك أنه جزيئتي هايدروجين وجزيئة أوكسجين؟!!

وهل أن ما في الماء يكون في الإنسان , وهل أن ما في الصلصال يتحقق فيه , أم أنه يسعى لكي يكون صلصالا , وحمأ مسنونا , أم أنه منهما وفيه من جميعهما؟؟!!

الإنسان معجزة خالقه في كوكبه السرمدي الدوران , الذي لا يستطيع أن يغفل حركته ولو لبرهة , لأنه سيقضي على ما فيه , وقد حيّر الفلاسفة والعلماء , وأذهل ذاته التي سعت مبتدءةً رحلة الإنتشار فوق اليابسة الندية الخضراء , والمأهولة بما لا يُحصى من المخلوقات الأخرى والأهوال.

وفي محنة الكشف عن مفردات معضلة الإنسان , يحضرني قول (لبيد بن ربيعة):

"ألا كلّ شيئ ما خلا الله باطل
وكلّ نعيم لا محالة زائل"

هذا شاعر جاهلي , أوصلته قدراته التأملية إلى التماهي بأصل الصيرورة الكبرى , وإدراك ماهية الإنسان الجوهرية , فوضع رؤيته بين كفتي الزوال والبطلان , في ميزان الإدراك الأعلى.

و(فوفالس) يقول: "لا يمكن لأي إنسان أن يصبح عالما بمعنى الكلمة من غير أن يصير قبل ذلك إنسانا بمعنى الكلمة".

فيبدو وكأنه يخشى الإقتراب من تفسير معنى الإنسان , لكنه يتوهمه ويحسب الوهم إدراكا ووعيا , وإمساكا بالمعنى العظيم.

فهل تدرك الذات كنهها؟

ومن أبرع مَن ناقش موضوع الإنسان برؤية إسلامية غربية , هو رئيس البوسنة والهرسك سابقا (علي عزت بيجوفيتش) في كتابه العميق الأفكار (الإسلام بين الشرق والغرب).
ومن الأفكار التي تناولها , وفندها وحاول الإمساك بجوهرها وغاياتها ما يلي:

"ليس الإنسان مفصلا على طراز داروين ولا الكون مفصلا على طراز نيوتن"

"أصل الإنسان هي حجر الزاوية لكل أفكار العالم"
"ينظر العلم إلى أصل الإنسان كنتيجة لعملية طويلة من التطور إبتداءً من أدنى أشكال الحياة , فيكون الإنسان إبن الطبيعة ويبقى دائما جزءً منها"

"يتحدث الدين والفن عن خلْق الإنسان , والخلق ليس عملية وإنما فعل إلهي..ليس شيئا مستمرا

وهل أن ما في الماء يكون في الإنسان , وهل أن ما في الصلصال يتحقق فيه , أم أنه يسعى لكي يكون صلصالا , وحمأ مسنونا , أم أنه منهما وفيه من جميعهما؟؟!!

الإنسان معجزة خالقه في كوكبه السرمدي الدوران , الذي لا يستطيع أن يغفل حركته ولو لبرهة , لأنه سيقضي على ما فيه

الإنسان حيّر الفلاسفة والعلماء , وأذهل ذاته التي سعت مبتدءةً رحلة الإنتشار فوق اليابسة الندية الخضراء , والمأهولة بما لا يُحصى من المخلوقات الأخرى والأهوال

"ألا كلّ شيئ ما خلا الله باطل
وكلّ نعيم لا محالة زائل"

"لا يمكن لأي إنسان أن يصبح عالما بمعنى الكلمة من غير أن يصير قبل ذلك إنسانا بمعنى الكلمة". (فوفالس)

من أبرع مَن ناقش موضوع الإنسان برؤية إسلامية غربية , هو رئيس البوسنة والهرسك سابقا (علي عزت بيجوفيتش) في كتابه العميق الأفكار (الإسلام بين الشرق والغرب).

"ليس الإنسان مفصلا على طراز داروين ولا الكون مفصلا على طراز نيوتن"

وإنما فعل مفاجئ..فعل أليم مفجع"!!!

"وسواء كان الإنسان نتاج التطور أو كان مخلوقا , فإن السؤال يظل قائما: ما هو الإنسان؟ وهل الإنسان جزء من العالم أو شيئ مختلف عنه؟"

"الإنسان هو الحيوان الكامل , والفرق بين الإنسان والحيوان إنما هو فرق في الدرجة وليس النوع , فليس هناك جوهر إنساني متميز"(جون واتسون)

الذي يوجد "فكرة تأريخية وإجتماعية محددة عن الإنسان , والتأريخ الإقتصادي والإجتماعي وحده هو التأريخ الذي يوجد في الحقيقة" (جيورجي لوكاكس)

"إن الإنسان نظام كغيره من النظم في الطبيعة يخضع بدوره لقوانين الطبيعة الحتمية العامة" (بافلوف)

"إن الإنسان نتاج بيئته وعمله" (فردريك إنجلز)

في كنيسة "سيكستي" لوحات جصية لمايك أنجلو تمثل تأريخ الإنسان منذ هبوطه إلى الأرض حتى يوم القيامة , فبأي معنى يمكن أن تكون هذه الصور حقيقية على الإطلاق؟

"لِمَ يوجد خوف بين كل شيئ حي , ما دام الإنسان والحياة هما ثمرة الطبيعة الأم؟"!!!

"يتميز العلم بفهم طبيعي خاطئ لكل ما هو حي وكل ما هو إنساني. إنه بمنطقه التحليلي المجرد يجعل الحياة خلوا من الحياة , ويجعل الإنسان خلوا من الإنسانية".

"إن دارون ومايكل أنجلو يمثلان فكرتين مختلفتين عن الإنسان وحقيقتين متعارضتين عن أصله , ولن ينتصر أحدهما على الآخر"

"فطبقا للعلم: الإنسان ليس أكثر من حيوان ذكي, وطبقا للدين: الإنسان حيوان مُنح شخصية ذاتية"

"الإنسان أكثر من جميع ما تقوله عنه العلوم مجتمعة"!!!

"الإنسان مخلوق إنصب في وعيه أن معنى حياته لا يتحقق إلا بإنكار الحيوان الذي بداخله"

"فلِمَ كان الإنسان دائم التعبير عن مخاوفه وإحباطاته من خلال الدين؟ ومن أي شيئ يبحث الإنسان عن الخلاص؟"!!!

"قد نجد مدنا بلا أسوار أو بدون ملوك أو حضارة أو مسرح, ولكن لم يرَ إنسان مدينة بدون أماكن للعبادة والعُبّاد" (بلوتارخ)

"يتحدث الدين والفن عن خلق الإنسان , والخلق ليس عملية وإنما فعل إلهي..ليس شيئا مستمرا وإنما فعل مفاجئ..فعل أليم مفجع"!!!

"وسواء كان الإنسان نتاج التطور أو كان مخلوقا , فإن السؤال يظل قائما: ما هو الإنسان؟ وهل الإنسان جزء من العالم أو شيئ مختلف عنه؟"

"يتميز العلم بفهم طبيعي خاطئ لكل ما هو حي وكل ما هو إنساني. إنه بمنطقه التحليلي المجرد يجعل الحياة خلوا من الحياة , ويجعل الإنسان خلوا من الإنسانية".

"فطبقا للعلم: الإنسان ليس أكثر من حيوان ذكي, وطبقا للدين: الإنسان حيوان مُنح شخصية ذاتية"

"قد نجد مدنا بلا أسوار أو بدون ملوك أو حضارة أو مسرح, ولكن لم يرَ إنسان مدينة بدون أماكن للعبادة والعُبّاد" (بلوتارخ)

"لقد وجِدت ولا تزال حتى الآن مجتمعات إنسانية بدون علم ولا فن ولا فلسفة , ولكن لم يوجد مجتمع إنساني بدون دين" (برجسون).

أفكار تتفاعل , وعالم يتجدد , ويبقى الإنسان هو الإنسان , وكلما أمعنت التفكر بكنهه وفحواه , أجدني كمن , فسر الماء بعد الجهد بالماء!!

"أن الحياة النفسية للإنسان البدائي لا تختلف إلا قليلا جدا عن الحياة النفسية للإنسان المعاصر" (هنري سيمل)

"لقد وجِدت ولا تزال حتى الآن مجتمعات إنسانية بدون علم ولا فن ولا فلسفة , ولكن لم يوجد مجتمع إنساني بدون دين" (برجسون).

أفكار تتفاعل , وعالم يتجدد , ويبقى الإنسان هو الإنسان , وكلما أمعنت التفكر بكنهه وفحواه , أجدني كمن , فسر الماء بعد الجهد بالماء!!

إنها حيرة الوجود البشري منذ بداية الحياة وحتى اليوم , وسيتواصل السؤال وتتراكم المحاولات , ولن تجد جوابا مقنعا , ووافيا , وتلك معجزة تذكرنا بعظمة الله الخلاق البارئ المصور , البديع الباعث الخبير القادر القدير , الذي بيده ملكوت السماوات والأرض , الواحد الأحد الصمد النور الوهاج بالجلال والإكرام!!

إنها حيرة الوجود البشري منذ بداية الحياة وحتى اليوم , وسيتواصل السؤال وتتراكم المحاولات , ولن تجد جوابا مقنعا , ووافيا

تلك معجزة تذكرنا بعظمة الله الخلاق البارئ المصور , البديع الباعث الخبير القادر القدير , الذي بيده ملكوت السماوات والأرض , الواحد الأحد الصمد النور الوهاج بالجلال والإكرام!!

*** ***

اصـــدارات " شبكـــة العلـــوم النفسيـــة العربيـــة "

اصـــدارات التحميـــل الحـــر (غير محمية بكلمة عبور)

مجلـــة بحائـــر نفسيـــة
http://www.arabpsynet.com/apn.journal/index-apn.htm

سلسلـــة الكتـــاب النفســـي العربـــي (خـــارج الاصـــدار الفطـــي)
http://www.arabpsynet.com/apneBooks/index.eBooks.htm

سلسلـــة إصـــدارات التـــراث النفســـي العرباسلامـــي
http://www.arabpsynet.com/TourathPsy/index.TourathPsy.htm

سلسلـــة "الكتـــاب الابيـــض" للعلـــوم النفسيـــة العربيـــة
www.arabpsynet.com/WhiteBooks/eWBIndex.htm

سلسلـــة اصـــدارات "الإنســـان والتطـــور" حســـب المحـــاور
http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/IndexRakAr.htm

المعجـــم الوجيـــز للعلـــوم النفسيـــة
الاصدارا العربي
http://www.arabpsynet.com/eDictBooks/IndexDictBook-Ar.htm
الاصدارا الفرنسي
http://www.arabpsynet.com/eDictBooks/IndexDictBook-Fr.htm
الاصدارا الانكليزي
http://www.arabpsynet.com/eDictBooks/IndexDictBook-Eng.htm

سلسلـــة اصـــدارات "و ماسواهـــا"
http://www.arabpsynet.com/Samarrai/IndexSamarrai.htm